

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ٦: قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ أ.ر.سي. سرول

نُواصلُ دِرَاسَتَنَا لِعِلْمِ الدِّفَاعِيَّاتِ. نَدْرُسُ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ أَرْبَعَةَ مَبَادِيٍّ لِلْمَعْرِفَةِ، تُعَدُّ حَيَوِيَّةً جَدًّا لِأَيِّ دِفَاعٍ سَلِيمٍ عَنِ المَسِيحِيَّةِ. وَهِيَ مَبَادِيٌّ تَتَعَرَّضُ لِلهُجُومِ المُسْتَمِرِّ مِنَ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ اللهِ. وَحَتَّى الآنَ، ذَكَرْنَا أَرْبَعَةَ مِنَ المَبَادِيِّ الَّتِي أُسِّمِيهَا بِالمَبَادِيِّ غَيْرِ القَابِلَةِ لِلتَّفَاوُضِ، وَالمَلازِمَةِ لِلْمَعْرِفَةِ البَشَرِيَّةِ، أَوَّلًا. وَهِيَ أَيْضًا مَبَادِيٌّ مُسَلَّمٌ بِهَا مِنَ الجَمِيعِ، وَمُسَلَّمٌ بِهَا أَيْضًا فِي صَفَحَاتِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ. وَأَذْكَرُكُمْ بِأَنَّ المَبَادِيَّ الأَرْبَعَةَ الَّتِي ذَكَرْنَاها هِيَ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ؛ وَثَانِيًا، قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ. وَثَالِثًا، المُوْتَوَقِّيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ لِلإِدْرَاكِ الحُسِيِّ. وَرَابِعًا، الِاسْتِخْدَامُ التَّشَابُهِيُّ لِلْعَةِ.

تَنَاولْنَا بِالفِعْلِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. وَكَمَا تَذْكَرُونَ، قُلْتُ إِنَّهُ يُمَكِّنُ لِلنَّاسِ قَطْعًا أَنْ يُنْكِرُوا صِحَّةَ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. وَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ كَثِيرًا. لَكِنِّي أَشْرْتُ إِلَى أَنَّ أَيَّ إِنْكَارٍ لِقَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ مُتَكَلِّفٌ وَمُوقَّتٌ، لِأَنَّهُ مِنَ المُسْتَحِيلِ أَنْ تَعِيشَ، أَوْ حَتَّى أَنْ تَصُمِدَ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، وَأَنْتِ تُنْكِرِ بِاسْتِمْرَارٍ صِحَّةَ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. فَلَإِ يُمْكِنُكَ أَنْ تَقُودَ سَيَّارَتَكَ إِلَى مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، ثُمَّ تَرَى شَاحِنَةً كَبِيرَةً مُقْبِلَةً نَحْوَكَ عَلَى الطَّرِيقِ السَّرِيعِ، فَتَقُولُ لِنَفْسِكَ: "يَا نَفْسِي، تُوجَدُ وَلَا تُوجَدُ شَاحِنَةٌ هُنَاكَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ وَدَاخِلَ العَلَاقَةِ نَفْسِهَا". فَمَعَ أَنَّكَ أَنْكَرْتَ بِفِيكَ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، سَتَضَعُظُ عَلَى الكَوَاجِحِ، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ الصُّمُودَ فِي عَالَمٍ مُتَنَاقِضٍ.

حَسَنًا، لِنَتَقَبَّلِ الآنَ إِلَى المَبْدَأِ الثَّانِي، وَهُوَ مَبْدَأُ السَّبَبِيَّةِ. وَمَبْدَأُ السَّبَبِيَّةِ اسْتُخْدِمَ بِطَرِيقَةٍ مُذْهِلَةٍ عَبْرَ تَارِيخِ الفِكْرِ النَّظَرِيِّ العَرَبِيِّ، لِإثْبَاتِ وُجُودِ اللهِ، انْطِلاقًا مِنْ شَكْلِ هَذَا العَالَمِ، وَرُجُوعًا إِلَى سَبَبٍ كَافٍ، يُمَكِّنُ أَنْ يُفَسَّرَ وُجُودَ هَذَا العَالَمِ أَوْ هَذَا الكُونِ. وَهَكَذَا، انْطَلَقَ المُفَكِّرُونَ فِي العُصُورِ الوُسْطَى - بَلْ وَقَبْلَ ذَلِكَ - مِنْ قَاعِدَةٍ سَبَبِيَّةٍ، رُجُوعًا إِلَى اللهِ بِصِفَتِهِ السَّبَبِ الأَوَّلِ. وَفِي الوَاقِعِ، يَعودُ ذَلِكَ حَتَّى إِلَى أَيَّامِ أَرِسْطُو، الَّذِي قَالَ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّبَبُ الأَوَّلُ، لِأَنَّ الأَشْيَاءَ تَسْتَلْزِمُ سَبَبًا.

لَكِن مَنذُ عَصْرِ التَّنْوِيرِ، أَيِ القُرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، ظَهَرَ تَشَكُّكٌ كَبِيرٌ فِي قَانُونِ السَّبَبِ وَالتَّنْتِيجَةِ، أَوْ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ. فَإِذَا قَرَأْتُمْ، مَثَلًا، كُتَيْبَ بَرْتْرَانْد رَاسِلِ، بِعُنْوَانِ "لِمَ لَسْتُ مَسِيحِيًّا؟"، سَتَجِدُونَهُ يَروي خِبْرَتَهُ الشَّخْصِيَّةَ عَنِ رِحْلَتِهِ المُتَعَلِّقَةِ بِالإِيمَانِ بِوُجُودِ اللهِ. فَقَالَ إِنَّهُ فِي صِبَاهُ، انْبَهَرَ بِشِدَّةٍ بِالحُجَّةِ المُؤَيَّدَةِ لِوُجُودِ اللهِ، المُؤَسَّسَةِ عَلَى صَرُورَةِ وُجُودِ سَبَبٍ أَوَّلٍ، بِنَاءً عَلَى قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ. وَبِالتَّالِي، آمَنَ فِي صِبَاهُ بِوُجُودِ اللهِ، إِلَى أَنْ قَرَأَ مَقَالًا كَتَبَهُ الفِيلْسُوفُ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيلِ، حَيْثُ أَبَدَى اعْتِرَاضًا مُهِمًّا عَلَى الفِكْرِ السَّبَبِيِّ. وَعَبَّرَ "مِيل" عَنِ اعْتِرَاضِهِ كَالتَّالِي: "إِذَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ

يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ سَبَبٍ، فَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ وُجُودَ اللَّهِ سَيَسْتَلْزِمُ وُجُودَ سَبَبٍ. وَمَنْ سَبَبَ اللَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لَهُ. وَبِهَذَا، لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَنْتِجَ وُجُودَ اللَّهِ بِنَاءً عَلَى الْمَبْدَأِ الْقَائِلِ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ.

عِنْدَمَا قَرَأَ بَرْتْرَانْدَ رَاسِلَ ذَلِكَ الْمَقَالَ وَهُوَ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، قَالَ إِنَّ عَقْلَهُ اسْتَنَّارَ فَعَجَّاهُ، فَأَدْرَكَ أَنَّ قَانُونَ السَّبَبِ وَالنتيجة لَنْ يَقُودَ إِلَى اسْتِنْتِاجِ وُجُودِ سَبَبٍ أَوَّلٍ، بَلْ سَيَقُودُ إِلَى رُجُوعٍ لَا نِهَائِيٍّ إِلَى الْوَرَاءِ، لَنْ يُوصَلَ فِي النِّهَائِيَّةِ إِلَى اللَّهِ، أَوْ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ. وَلِذَا، رَفَضَ جَدْوَى مُحَاوَلَةِ إِبْتِهَاتِ وُجُودِ اللَّهِ بِنَاءً عَلَى قَانُونِ السَّبَبِ وَالنتيجة.

دَعُونِي أُرَدُّ عَلَى ذَلِكَ فِي إِيجَازٍ وَبَسَاطَةٍ. هَذَا مِثَالٌ حَيٌّ لِكَبُورَةِ جَوَادٍ. لَا جِدَالَ عَلَى أَنَّ جُونِ سْتِيوَارْتِ مِيلَ كَانَ فَيَلْسُوفًا بَارِعًا، وَحَبِيرًا فِي الْمَنَاطِقِ، وَمَاهِرًا فِي التَّفْكِيرِ وَالْمَعْرِفَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ. لَكِنَّهُ ارْتَكَبَ هُنَا خَطَأً جَوْهَرِيًّا فِي فِكْرِهِ عَنِ السَّبَبِيَّةِ. وَالخَطَأَ الرَّئِيسِيَّ هُوَ خَطَأٌ فِي التَّعْرِيفِ. فَقَدْ افْتَرَضَ أَنَّ تَعْرِيفَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ هُوَ بِبَسَاطَةٍ أَنَّهُ "لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ". وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ التَّفْلِيدِيَّ بِالْفِعْلِ، سَيَكُونُ نَقْدُهُ لِلرُّجُوعِ بِالْأَسْبَابِ إِلَى سَبَبٍ أَوَّلٍ صَحِيحًا.

دَعُونِي أُصِغُ ذَلِكَ فِي كَلِمَاتٍ بَسِيطةٍ. سَمِعْتُ قِصَّةً قَبْلًا عَن وَلدَيْنِ صَغِيرَيْنِ كَانَا يَتَنَاقَشَانِ. فَقَالَ الصَّيْبِيُّ الْأَوَّلُ لِلثَّانِي: "مِنْ أَيَّنَ جَاءَتِ الْأَشْجَارُ؟" أَجَابَهُ صَدِيقُهُ: "اللَّهُ خَلَقَ الْأَشْجَارَ". ثُمَّ قَالَ: "وَمِنْ أَيَّنَ جَاءَتِ الزُّهُورُ؟" أَجَابَهُ صَدِيقُهُ: "اللَّهُ خَلَقَ الزُّهُورَ". فَقَالَ صَدِيقُهُ: "وَمِنْ أَيَّنَ جِئْتَ أَنْتَ؟" أَجَابَهُ: "اللَّهُ خَلَقَنِي". عِنْدئذٍ سَأَلَهُ صَدِيقُهُ: "وَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟" أَجَابَهُ صَدِيقُهُ: "اللَّهُ خَلَقَ نَفْسَهُ".

أَتَذَكَّرُ أَنَّ الْوَالِدِيَّ أَخْبَرْتَنِي بِأَنَّي حِينَ كُنْتُ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِي تَقْرِبًا، سَأَلْتُ رَاعِي كَنِيسَتِنَا: "مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟" انْتَهَرَ الرَّاعِي بِسُؤَالِي، وَقَالَ لِوَالِدِي: "تَحْمِلِينِ فِي يَدِكَ طِفْلًا مُعْجَزَةً. عِنْدَمَا يَكْبُرُ هَذَا الصَّيْبِيُّ، سَيُصْبِحُ لاهوتيًا، أَوْ فَيَلْسُوفًا، أَوْ شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ". أَخْبَرْتَنِي وَالدِّيَ بِذَلِكَ عِنْدَمَا بَدَأْتُ أَسْعَى إِلَى مُمَارَسَةِ عِلْمِ اللاهوتِ. وَقَالَتْ: "لَطَالَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ، لِأَنَّ الرَّاعِي أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ، وَأَنْتَ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِكَ". فَأَجَبْتُهَا: "أُمِّي، دَعِينِي أَخْبِرُكَ بِشَيْءٍ". فَسَأَلْتَنِي: "مَا هُوَ؟" قُلْتُ: "كُلُّ الْأَطْفَالِ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهِمْ يَسْأَلُونَ: مِنْ أَيَّنَ جَاءَ اللَّهُ؟ هَذَا سُؤَالٌ مُعْتَادٌ يَظْرَحُهُ جَمِيعُهُمْ، وَلَا يَنِمُّ عَن ذِكَاةٍ حَاصِّ لَدَيَّ، سِوَاءُ كُنْتُ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِي". لَكِنَّنَا نَتَوَقَّفُ أَحْيَانًا وَنَقُولُ: "هَذَا الصَّيْبِيُّ عَمِيقٌ"، حِينَ يَسْأَلُ: "مَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟" وَهَلِ الْجَوَابُ هُوَ: "اللَّهُ خَلَقَ نَفْسَهُ؟" كَلَّا، كَلَّا، كَلَّا.

حَتَّى اللَّهُ نَفْسُهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ. وَمَا نَقْصِدُهُ هُنَا أَنَّهُ لَا يَلْزِمُ أَنْ يُوَجَدَ سَبَبٌ سَابِقٌ لِلَّهِ. فَااللهُ، بِحَسَبِ فَهْمِ أَرِسْطُو الصَّحِيحِ لَهُ، سَبَبٌ دُونَ مُسَبَّبٍ. لَسْنَا بِحَاجَةٍ أَنْ نُقَدِّمَ سَبَبًا لِكَائِنٍ أَرْزَلِيٍّ، كَمَا سَتَرَى فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ. لَكِنِ الْآنَ، وَبِاخْتِصَارٍ، دَعُونِي أَقُولُ إِنَّ الخَطَأَ يَكْمُنُ فِي التَّعْرِيفِ. فَقَانُونُ السَّبَبِيَّةِ لَمْ يَقُلْ قَطُّ إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ

لِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يَقُولُ قَانُونُ السَّبَبِيَّةِ، فِي صِيَاغَتِهِ الصَّحِيحَةِ: "كُلُّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ يَسْبِقُهَا". كُلُّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ يَسْبِقُهَا. وَلَوْ كَانَ جُونِ سْتِيوارْتِ مِيلٍ قَدْ اتَّبَعَ هَذَا التَّعْرِيفَ لِلْسَّبَبِيَّةِ، لَمَا أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْفَوَاضِي، وَلَمَا أَضَلَّ بَرْتْرَانْدَ رَاسِلَ، وَأَسْقَطَهُ فِي شَرِكِ التَّشْوِيشِ. وَبِالْمُنَاسَبَةِ، ظَلَّ بَرْتْرَانْدَ رَاسِلَ، بِقَدْرِ بَرَاعَتِهِ، ثَابِتًا عَلَى الْمُبْدَأِ الَّذِي تَبَنَاهُ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ حَتَّى يَوْمِ مَمَاتِهِ. ظَلَّ هَذَا الْخَطَأُ جُزْءًا مِنْ فِكْرِهِ، لِأَنَّ تَعْرِيفَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ، مُجَدِّدًا، لَيْسَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَنْبَغِي وُجُودُ سَبَبٍ لِكُلِّ شَيْءٍ، سَيَتَحَتَّمُ وُجُودُ سَبَبٍ لِلهِ. لَكِنَّ الْقَانُونَ يَقُولُ بِبَسَاطَةٍ إِنَّ كُلَّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ. وَإِنْ أَمْكَنَّا إِيجَادَ شَيْءٍ هُوَ لَيْسَ نَتِيجَةً، أَيْ شَيْءٍ يَتَمَتَّعُ بِقُوَّةِ الْكَيْنُونَةِ فِي دَاتِهِ، وَكَائِنْ مُنْذُ الْأَزَلِ، فَهُوَ قَطْعًا لَنْ يَكُونَ نَتِيجَةً. وَعِنْدَمَا نَصِفُ طَبِيعَةَ اللَّهِ، نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ كَائِنٌ ذَاتِي الْوُجُودِ، وَمُسْتَقِلٌّ، وَعَيْرُ مُشْتَقٍّ مِنْ شَيْءٍ، أَوْ مَنْوُطٌ بِشَيْءٍ، لَكِنَّهُ أَرْزِيٌّ. فَلَا شَيْءٌ يُسَبِّبُهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ نَتِيجَةً. الْأَشْيَاءُ الْمَخْلُوقَةُ وَحَدَاها هِيَ نَتَائِجٌ.

إِنْ نَظَرْنَا إِلَى هَذَا التَّعْرِيفِ، سَتَرَى - وَقَدْ يَشُوبُ كَلَامَنَا التَّالِيَّ بَعْضَ التَّعْفِيدِ - أَنَّ هَذَا التَّعْرِيفَ - "كُلُّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ" - هُوَ تَصْرِيحٌ نَصَفُهُ بِأَنَّهُ صَحِيحٌ شَكْلِيًّا. وَصَحِيحٌ شَكْلِيًّا يَعْنِي أَنَّهُ حَقِيقَةٌ شَكْلِيَّةٌ. وَمَا الْحَقِيقَةُ الشَّكْلِيَّةُ؟ الْحَقِيقَةُ الشَّكْلِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةٌ - إِنْ حَاوَلْتُ تَسْهِيلَ ذَلِكَ سَأَزِيدُ مِنْ صُعُوبَتِهِ - الْحَقِيقَةُ الشَّكْلِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةٌ صَحِيحَةٌ تَحْلِيلِيًّا. يَا لِلْهَوْلِ! حَاوَلْتُ التَّبْسِيطَ فَازْدَادَ الْأَمْرُ سُوءًا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ إِذَا كَانَ أَمْرٌ مَا صَحِيحًا شَكْلِيًّا، فَهُوَ صَحِيحٌ تَحْلِيلِيًّا. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ صَحِيحٌ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ. فَإِذَا حَلَلْتُمْ التَّصْرِيحَ "كُلُّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ"، فَفَقِّظْ بِتَحْلِيلِ الْكَلِمَاتِ، وَالْعَلَاقَةِ بَيْنَهَا فِي الْجُمْلَةِ، سَتَجِدُونَ أَنَّ هَذَا التَّصْرِيحَ لَيْسَ صَحِيحًا فَحَسْبُ، لَكِنَّهُ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا.

التَّصْرِيحُ التَّحْلِيلِيُّ شَبِيهُ بِمَا يَلِي: "الْعَارِزُ رَجُلٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ". فِي تَصْرِيحِ تَحْلِيلِيٍّ كَهَذَا: "الْعَارِزُ رَجُلٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ"، لَدَيْنَا الْمُبْتَدَأُ وَهُوَ كَلِمَةُ "الْعَارِزِ"، ثُمَّ نَصَفُ الْعَارِزِ بِشَيْءٍ، أَيْ نَنْسُبُ خَبْرًا إِلَى الْعَارِزِ، فَتَقُولُ: "الْعَارِزُ رَجُلٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ". لَكِنَّ مَاذَا اكْتَشَفْتَ عَنِ الْعَارِزِ مِنْ عِبَارَةِ "رَجُلٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ" لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ بِالْفِعْلِ مِنْ كَلِمَةِ "الْعَارِزِ"؟ فَفِي التَّصْرِيحِ التَّحْلِيلِيِّ، لَا تُعْطَى مَعْلُومَاتٌ جَدِيدَةٌ فِي الْخَبْرِ، تَخْتَلِفُ عَنِ الْمَوْجُودَةِ بِالْفِعْلِ فِي الْمُبْتَدَأِ. إِنْ قُلْتُ مَثَلًا: "الْمُتَزَوِّجُ ثَلَاثَةٌ أَضْلَاعٌ"، فَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ أَمْ خَاطِئٌ؟ هَذَا صَحِيحٌ بِالتَّأَكِيدِ. وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا، لِأَنَّ الْمُثَلَّثَ، بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ، لَهُ ثَلَاثَةٌ أَضْلَاعٍ، كَمَا أَنَّ الْعَارِزَ، بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ، هُوَ رَجُلٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجٍ. لَيْسَ جَمِيعُ الرِّجَالِ غَيْرُ الْمُتَزَوِّجِينَ عَرَبًا، فَبَعْضُهُمْ أَرَامِلٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَكِنَّ جَمِيعَ الْعَرَابِ هُمْ رِجَالٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجِينَ. إِذَنْ، حِينَ نَقُولُ إِنَّ أَمْرًا مَا صَحِيحٌ شَكْلِيًّا أَوْ تَحْلِيلِيًّا، فَهَذَا أَسْلُوبٌ آخَرَ نَقُولُ بِهِ إِنَّهُ صَحِيحٌ مَنْطِقِيًّا، أَوْ بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ.

لِنَنْظُرْ مُجَدِّدًا إِلَى التَّعْرِيفِ. إِذَا قُلْنَا "كُلُّ نَتِيجَةٍ" وَتَوَقَّفْنَا، لِتَعْرِيفِ كَلِمَةِ "نَتِيجَةٍ". فَمَاذَا سَنَقُولُ؟ كَيْفَ يُمَكِّنُ تَعْرِيفُ "النَّتِيجَةِ"؟ مَا هِيَ النَّتِيجَةُ؟ هِيَ شَيْءٌ حَدَثَ أَوْ سَيَحْدُثُ. هَذَا صَحِيحٌ. لَكِنَّهَا أَيْضًا شَيْءٌ أُحْدِثُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَوْ بِمُفْرَدَاتِنَا السَّابِقَةِ، هِيَ شَيْءٌ سَبَبُهُ شَيْءٌ آخَرُ.

وَمَا السَّبَبُ؟ مَا هُوَ السَّبَبُ؟ مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ السَّبَبُ؟ يُحْدِثُ السَّبَبُ نَتِيجَةً. وَلِهَذَا نُسَمِّيهَا نَتِيجَةً. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ سَبَبٌ لَا يُسَبَّبُ شَيْئًا. وَمَا يُسَبَّبُهُ السَّبَبُ هُوَ نَتِيجَةٌ. إِذَنْ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ سَبَبٌ دُونَ نَتِيجَةٍ. وَكُلُّ مَا يُعْرَفُ بِأَنَّهُ نَتِيجَةٌ يَجِبُ، بِحُكْمِ تَعْرِيفِهِ، أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ. وَلِذَا، هَذَا التَّصْرِيحُ - "كُلُّ نَتِيجَةٍ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا سَبَبٌ" - هُوَ بِبَسَاطَةٍ امْتِدَادٌ لِقَانُونِ عَدَمِ التَّنَافُضِ، لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مَا نَتِيجَةً، وَلَيْسَ نَتِيجَةً، فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ وَفِي الْعِلَاقَةِ نَفْسِهَا. وَلَا يُمَكِّنُ لِشَيْءٍ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا - أَيْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ سَبَبٌ - دُونَ نَتِيجَةٍ. وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَتِيجَةٌ دُونَ سَبَبٍ، وَإِلَّا كَانَ هَذَا تَنَافُضًا.

الجواب الرئيسي الذي يُمكنُ تقديمه، إِذَا سَأَلْتُ: "لِمَ هَذَا الْبَسَاطِ مَوْجُودٌ فِي هَذِهِ الْعُرْفَةِ؟" أَبَسْطُ جَوَابٍ يُمَكِّنُ تَقْدِيمُهُ هُوَ "بِسَبَبِ". لَنْ يُرْضِيَكُمْ هَذَا الْجَوَابُ، وَسَتَطْلُبُونَ الْمَزِيدَ. وَسَتَقُولُونَ: "بِسَبَبِ مَاذَا؟" فَأُجِيبُكُمْ: "بِسَبَبِ أَنَّ مُخْرَجَ هَذَا الْبَرْنَامِجِ أَرَادَ أَنْ يُؤَسَّسَ دِيكورا يَبْدُو مِثْلَ مَكْتَبِ أَوْ عُرْفَةِ اجْتِمَاعَاتٍ، فَذَهَبَ وَاشْتَرَى هَذَا الْبَسَاطِ الْقَدِيمَ، وَوَضَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ، كَجُزءٍ مِنَ الدِيكورا". وَبِهَذَا قَدَّمْتُ لَكُمْ مَزِيدًا مِنْ أَسْبَابِ وُجُودِ هَذَا الْبَسَاطِ تَحْتَ قَدَمِي الْآنَ. هَلْ هَذَا وَاضِحٌ؟ لَمْ يُسَبَّبِ الْمَخْرَجُ الْبَسَاطِ. وَإِنْ سَأَلْتُ: "مَا الَّذِي سَبَبَ الْبَسَاطِ؟" سَيَكُونُ عَلَيْنَا الْعَوْدَةُ إِلَى صَانِعِهِ، إِلَى آخِرِهِ. لَكِنَّا نُدْرِكُ جَيِّدًا أَنَّنَا نَتَحَدَّثُ بِبَسَاطَةٍ. مِنْ أَوَّلِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَعَلَّمُ الْأَبُ أَنْ يَقُولَهَا لِابْنِهِ، عِنْدَمَا يَسْأَلُهُ الْوَالِدُ سُؤَالَ، هُوَ "بِسَبَبِ". هَذَا هُوَ الْجَوَابُ. بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، نَقُولُ "هَذِهِ الزَّهْرَةُ لَهَا سَبَبٌ، وَهَذِهِ الشَّجَرَةُ لَهَا سَبَبٌ، فَقَدْ جَاءَ بِهَا شَيْءٌ مَا"، لِأَنَّنَا نُدْرِكُ أَيْضًا أَنَّ لَا شَيْءَ يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْعَدَمِ.

مُجَدِّدًا - وَأُرِيدُ أَنْ تُفَكِّرُوا مَعِي جَيِّدًا، لِأَنِّي سَأُجْهِدُ أَذْهَانَكُمْ قَلِيلًا. عِنْدَمَا أَقُولُ إِنَّ هَذَا مَبْدَأُ شَكْلِي، أَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُنَا شَيْئًا عَنِ الْوَاقِعِ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ. فَهُوَ لَا يُخْبِرُنَا بِوُجُودِ أَسْبَابِ فِي الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ. وَلَا يُخْبِرُنَا بِوُجُودِ نَتَائِجٍ فِي الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ. فَرَبَّمَا كَانَ كُلُّ مَا فِي الْعَالَمِ أَرْلِيًا وَبِلَا مُسَبَّبٍ. لَا أَظُنُّ أَنَّ هَذَا صَحِيحٌ، لَكِنِّي أَقُولُ، افْتِرَاضِيًا، إِنَّنَا نَجْلِسُ الْآنَ فِي هَذِهِ الْعُرْفَةِ، وَتُوجَدُ كَافَّةُ أَنْوَاعِ الْأَشْيَاءِ بِالخَارِجِ. تُوجَدُ سَيَّارَاتٌ، وَشَاحِنَاتٌ، وَطَائِرَاتٌ، وَنَحْلٌ، وَأَشْجَارٌ، وَعَيْرٌ ذَلِكَ. وَيُمَكِّنُنِي أَنْ أُوَكِّدَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَيُّ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا أَوْ كُلُّهَا - كَالشَّاحِنَاتِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالسَيَّارَاتِ، وَعَيْرِهَا - نَتِيجَةً، فَيَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ قَطْعًا أَنَّ لَهَا مَاذَا؟ لَهَا أَسْبَابٌ. لَكِنَّهَا قَدْ لَا تَكُونُ نَتَائِجَ. لَكِنَّ الْمَبْدَأَ الْمُنْطَهِي يَقُولُ إِنَّهُ إِنْ كَانَ شَيْءٌ مَا نَتِيجَةً، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَاذَا؟ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ. وَبِالتَّالِي، إِذَا أَمَكَّنْكُمْ إِثْبَاتٌ أَنَّ شَيْئًا مَا نَتِيجَةً، تَكُونُ قَدْ أَثْبَتَتْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ يَسْبِقُهُ.

مُنذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، عِنْدَمَا أَصَدَرْنَا كِتَابَنَا عَنِ الدِّفَاعِيَّاتِ الكَلَّاسِيَّةِ، وَخَضَعَ لِلتَّقْيِيمِ مِنَ العُلَمَاءِ عِبْرَ أُنْحَاءِ البِلَادِ. أَحَدُ العُلَمَاءِ، وَكَانَ فَيْلَسُوفًا أَيْضًا، وَجَهَ نَقْدًا قَوِيًّا لِلحُجَجِ المُقَدَّمَةِ فِي الكِتَابِ. وَانْتَقَدَنِي قَائِلًا - وَلَنْ أُنسى ذَلِكَ أَبَدًا. قَالَ: "مُشْكِلَةُ سَبْرُول" - لَنْ أَثْرَكَ لَكُمْ مَجَالًا لِاسْتِكْمَالِ الجُمْلَةِ. قَالَ - وَكَانَ فَقَطْ يُشِيرُ إِلَى هَذَا الكِتَابِ، وَلَيْسَ إِلَى حَيَاتِي عُمُومًا - قَالَ: "مُشْكِلَةُ سَبْرُول وَكِتَابِهِ هِيَ أَنَّ سَبْرُولَ لَمْ يُفْسِحْ مَجَالًا لِوُجُودِ نَتِيجَةِ بِلَا سَبَبٍ". كَانَ هَذَا نَقْدَهُ. وَأَتَّبِعُ مَبْدَأً فِي حَيَاتِي، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ تَعَرَّضَ أَحَدٌ كَثِيرًا لِلنَّقْدِ فِي أَثْنَاءِ تَقْيِيمِهِ، لَا أَتَكَبَّدُ عَنَاءَ خَوْضِ جِدَالٍ أَوْ نِقَاشٍ مَعَ المُقَيِّمِ. فَوَظِيفَتُهُمْ تَسْتَلْزِمُ مِنْهُمْ تَقْيِيمَهُ. وَأَتَقَبَّلُ كُلَّ مَا يَقُولُونَهُ. وَلَا أَجَادِلُ. لَكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ التَّرَامَ الصَّمْتِ أَمَامَ هَذَا النَّقْدِ. وَلِذَا أُرْسَلْتُ إِلَى هَذَا الفَيْلَسُوفِ رِسَالَةً لِطَيْفَةٍ، تَقُولُ: "ذَكَرْتُ فِي تَقْيِيمِكَ أَنَّ المُشْكِلَةَ الوَحِيدَةَ الَّتِي وَاجَهْتَهَا مَعَ كِتَابِي هِيَ أَنِّي لَمْ أَفْسِحْ المَجَالَ لِوُجُودِ نَتِيجَةِ بِلَا سَبَبٍ". وَقُلْتُ: "أَنْتَ مُحَقِّقٌ. لَمْ أَفْسِحْ مَجَالًا لِوُجُودِ نَتِيجَةِ بِلَا سَبَبٍ. لَكِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّ رَفْضِي بِإِصْرَارٍ إِفْسَاحَ المَجَالِ لِوُجُودِ نَتَائِجِ بِلَا سَبَابٍ هُوَ فَضِيلَةٌ وَلَيْسَ رَذِيلَةٌ. سَيُسْعِدُنِي تَقَبُّلُ وُجُودِ نَتِيجَةِ بِلَا سَبَبٍ، إِنْ تَفَضَّلْتَ وَقَدَّمْتَ لِي مِثَالًا وَاحِدًا فِي كُلِّ الكَوْنِ لِنتِيجَةِ بِلَا سَبَبٍ". وَبِالطَّبْعِ، لَا زِلْتُ أُنْتَظِرُ رَدَّهُ، لِأَنِّي أَعْلَمُ، وَهُوَ سَيَعْلَمُ إِنْ فَكَّرَ قَلِيلًا، أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُوجَدَ نَتِيجَةُ بِلَا سَبَبٍ، لِأَنَّ النَتِيجَةَ، بِحُكْمِ تَعْرِيفِهَا، هِيَ شَيْءٌ لَهُ سَبَبٌ يَسْبِقُ. هَذَا وَاحِدٌ فَقَطْ مِنْ أَسْبَابِ إِثَارَةِ وَابِلٍ مِنَ الشُّكُوكِ ضِدَّ الفِكرِ السَّبَبِيِّ التَّقْلِيدِيِّ.

السَّبَبُ الآخَرُ، الَّذِي سَنَدَرُسُهُ فِي مُحَاضَرَتِنَا القَادِمَةِ، هُوَ التَّحْلِيلُ التَّقْدِيمِيُّ لِلسَّبَبِيَّةِ، الَّذِي بَدَأَهُ الفَيْلَسُوفُ التَّجْرِبِيُّ الَبْرِيطَانِيُّ دَافِيدَ هِيُومَ. فَالنَّقْدُ الَّذِي يُعَدُّ نُقْطَةَ تَحْوِيلٍ، الَّذِي أَثَارَهُ دَافِيدَ هِيُومَ ضِدَّ السَّبَبِيَّةِ، دَفَعَ العَدِيدَ مِنَ المُفَكِّرِينَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى الظَّنِّ بِأَنَّ دَافِيدَ هِيُومَ قَضَى عَلَى السَّبَبِيَّةِ تَمَامًا. وَفِي مُحَاضَرَتِنَا المُقْبِلَةِ، سَأَتَنَاوَلُ تَحْلِيلَ "هِيُومَ"، وَالاِفْتِرَاضَ المُصَاحِبَ لَهُ، بِأَنَّهُ دَحَضَ بِهَذَا النَّقْدِ حُجَّةَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ بِرُمَّتِهَا. وَأَرْجُو أَنَّ أُثْبِتَ لَكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَلَى الإِطْلَاقِ. لَكِنِ مُجَدِّدًا، دَعَوْنِي أَكْرُرُ بِاخْتِصَارٍ أَنَّ رَفْضَ قَانُونِ السَّبَبِيَّةِ يَصْدُرُ فِي غَالِبِيَّةِ الأَحْيَانِ عَنِ مُعَارِضِي الإِيمَانِ الكَلَّاسِيكِيِّ بِوُجُودِ اللهِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَجَنُّبَ التَّأثيرِ الهَائِلِ لِلْفِكرِ السَّبَبِيِّ، الَّذِي يَدْفَعُ النَّاسَ إِلَى تَقْدِيمِ سَبَبٍ كَافٍ لِلنتَائِجِ الَّتِي نُقَرُّ بِأَنَّهَا نَتَائِجٌ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسِّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ القِدِّيسِ أُنْدَرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِكَلِيَّةِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ لِلإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلَّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُلْنَا لاهوتيون" و"أدهشني الأمل".